



معلومات البحث

تاريخ الاستلام: 2022/07/07

تاريخ القبول: 2022/11/15

Printed ISSN: 2352-989X

Online ISSN: 2602-6856

محطات التأسيس وروافد التكوين الثقافي للأدب الجزائري القديم

## *The founding stations and tributaries of the cultural formation of ancient Algerian literature*

محمد صالح

<sup>1</sup> جامعة تيسمسيلت، [smedhbb@gmail.com](mailto:smedhbb@gmail.com)

**ملخص:** نستعرض من خلال هذه الورقة البحثية محطات النشأة والتأسيس للأدب الجزائري القديم وأهم العوامل التي ساهمت في تكوين الحركة الأدبية بالمغرب الأوسط. ورغم قلة البحث في مظان الأدب العربي بهذا الإقليم الجغرافي والذي لم يتبوأ المكانة التي يستحقها لدى معظم الدارسين، إلا أن الآثار الموجودة والتي جادت بها قرائح وأفكار شعراء وأدباء جزائريين تشهد بتشكله فيها، فمما وتميز، مكتسبا خصوصية جمالية وفنية، والذي لا يمكن فصله عن سياقات رافده الأساس الأدب العربي في المشرق. **الكلمات المفتاحية:** الأدب الجزائري، النشأة، الحركة الأدبية، روافده، الدولة الرستمية

**ABSTRACT:** Through this paper we review the stations of origin and foundation of ancient Algerian literature and the most important factors that contributed to the formation of the literary movement in the Middle Morocco.

Although there is little research into the shadows of Arab literature in this geographical region, which has not taken the place it deserves in most scholars. However, the existing monuments with which Algerian poets and fathers have developed are characterized by the fact that it is characterized by the acquisition of aesthetic and artistic specificities, which cannot be separated from the contexts of Arabic literature in Mashreq.

**Keywords:** Algerian Literature, Upbringing, Literary Movement, Tributaries, Rastamese State

عرف المغرب الأوسط (الجزائر) كغيره من الأمصار العربية انطلاقاً من الفتح الإسلامي وإلى غاية العهد العثماني حركات علمية وأدبية مختلفة، أثبتت بما لا يدع مجالاً للشك نبوغ الشخصية الجزائرية في مختلف الميادين العلمية والأدبية خاصة ما تعلق منها بالشعر والأدب عموماً، ويكفي أن نذكر مكتبة المعصومة التي ضمت أكثر من (300) ثلاثمائة ألف كتاب في مختلف العلوم والتي كانت محل نهب وحرق من قبل العُبيديين؛ حتى ندرك القيمة الثقافية والعلمية لتيهت عاصمة الدولة الرستمية آنذاك.

ومع ظهور الدولة الرستمية (160-296هـ) كانت بداية التأسيس الفعلي للأدب الجزائري القديم بهذا الإقليم من المغرب العربي الكبير، الذي غلب عليه طابع النقل، ليأتي عصر الدولة الحمادية والموحدية فكان بحق عصر النهضة في مختلف مناحي الحياة الفكرية والفنية والأدبية، بلغت فيه الجزائر على عهدهم شأواً مرموقاً من الحضارة والتقدم وازدهرت أسواق الأدب وظهرت حركة فكرية لم تعرفها إفريقيا من قبل كما يوضح ذلك الباحث رابح بونار.

وإذا كان الحال كما أسلفنا ذكره، فإن الأدب الجزائري القديم منذ نشأته وإلى اليوم شكل مادة مهمة للدراسة والبحث، لما يكتسبه النتاج الأدبي من أهمية بالنسبة لذاكرة الثقافة الجزائرية خلال تلك الحقبة، ومع هذا لا يزال هذا الأدب بهذا الإقليم العربي لم ينل حظه من الاهتمام والعناية الكافية نتيجة تقاعس الباحثين الجزائريين والقصور في التوجه لهذا الميدان، مثلما يشير إليه عبد المالك مرتاض.

وانطلاقاً من ذلك وإيماناً منا بتمثل أدب عربي في الجزائر له من القيم الفنية والجمالية ضمن منظومة التراث العربي ماله، فإننا سنحاول استعراض محطات نشأة هذا الأدب ضمن قطر المغرب الأوسط والظروف المحيطة بتأسيسه وتكوينه، من خلال الإجابة عن التساؤلات المطروحة والمتمثلة فيما يلي:

- هل يملك إقليم المغرب الأوسط (الجزائر) أدباً قائماً بذاته، أم أنه مجرد محاكاة لأدب المشرق ينهل منه وينسج على منواله؟ ما ظروف تأسيسه؟ وما مراحل نضجه وتطوره؟ وهل هناك روافد علمية ومراكز ثقافية ساهمت في تشكيله وتكوينه؟

## 2. محطات النشأة والتأسيس للحركة الأدبية بالجزائر:

عُرِفَت الحركة الأدبية بالقطر الجزائري منذ القديم، فرغم عدم إيفاء الأدب في المغرب الأوسط حقه وتجاهله من قبل الكثير من الدارسين، إلا أن هناك جهودا معتبرة عرّفت بهذا الأدب، الذي أُسس له منذ بدايات الفتح الإسلامي؛ انطلاقا من أواخر النصف الأول للقرن الثاني للهجرة "فالتراث الجزائري حفل بصنعة الكتابة، ورفع لواءها أدباء خاضوا في إنشاء القريض خوضهم في الديباجة النثرية العربية، فالأدب الجزائري لا ينبغي أن ينطلق من أقرب فترة، وإنما يكون من الإنصاف لهذا الأدب، أن نُؤرخ له منذ عصوره الغابرة، شأنه شأن التأرخة للأدب في المشرق العربي" (غروي، 2015، صفحة 108).

ومما لا شك فيه أن الجزائر وعلى مدار جميع عهودها الحضارية أنجبت العديد من الشعراء والأدباء الذين برعوا في مختلف النواحي الأدبية والفكرية والفنية والعلمية، وأسهموا في الرقي الثقافي بالمغرب الأوسط، حتى غدت العديد من الأقاليم بها حواضر تشع علما ومعرفة، فقامت بها مراكز ثقافية حضارية لا تقل أهمية عن مراكز الشرق الإسلامي مثل (تيهت) و(أشير) وقلعة بني حماد وبجاية وتلمسان وغيرها، يقصدها الكثير من العلماء والمحدثين والفقهاء والشعراء والأدباء الوافدين إليها طلبا للعلم من القيروان والأندلس ومن غيرها.

فالأدب الجزائري القديم تحدد بدايته مع ظهور الدولة الرستمية مثلما يؤكد ذلك الباحث عبد المالك مرتاض بقوله: "أن الأدب العربي القديم في الجزائر موجود ما في ذلك من ريب، وأن قدمه ينطلق أساسا، من تاريخ تأسيس الدولة الرستمية التي يرتبط بعض الشعر والنثر بحكامها أنفسهم" (مرتاض، الأدب الجزائري القديم دراسة في الجذور، 2016، الصفحات 7-8). فقيام الدولة الرستمية كان التأسيس لهذا الأدب الجزائري الذي أنتج نصوصا عربية قديمة توفرت فيها الخصائص الفنية التي تُلمس في أي أدب، فهذه الدولة كان لها الأثر الكبير في التمكين للعربية من الانتشار التي جعلت منها اللغة الرسمية لها.

أما "رابح بونار" فيؤكد أن تحديد العصور الأدبية بفترات زمنية مقترنة بقيام دولة وسقوطها غير سديد، مقسما تطور حركة الأدب في الجزائر لعصور أدبية مرت بمراحل، وهي عصر النشوء الثقافي، وابتدئ بعد الفتح الإسلامي بقليل أي (50هـ) وينتهي بقيام الدولة الأغلبية (184هـ)، ثم يليه عصر النهضة الأدبية الثقافية، وابتدئ بقيام الدولة الأغلبية (184هـ) وينتهي بسقوطها أواخر القرن الثالث (296هـ)، فعصر الازدهار الأدبي الثقافي، وابتدئ بقيام الدولة الفاطمية وينتهي بسقوط دولة بني حماد على يد الموحدون (296-547هـ)، ووصولاً لعصر النضج الأدبي الثقافي، وابتدئ بقيام دولة الموحدون وينتهي بسقوط دولة بني زيان بالجزائر (547-958هـ) (بونار، 1999، صفحة 37).

كانت الجزائر (المغرب الأوسط) خلال فترة عصر النشوء الثقافي، في حالة مخاض وعهد تلمذة، فلم تنبغ منها في الشعر والنثر في أوائل هذا العصر شخصية تذكر نتيجة غلبة العلوم الدينية في تلك الفترة، حيث كان القرآن الكريم

أساس كل حركة فكرية، فهو قوام الدين وديوان الثقافة وقاموس اللغة، فلم تظهر بها شخصيات ثقافية وأدبية ودينية إلا ما حُكي عن أبي العرب "أن شخصية جزائرية شاركت في دراسة الفقه ورواية الحديث وهي شخصية أبي القاسم الزواوي الذي روى عن مالك وأخذ عنه ولاريب" (بونار، 1999، صفحة 63) وما هذه الشخصية إلا نموذجاً لشخصيات أخرى ربما تجاهلها أصحاب كتب التراجم.

ولم يقدر للجزائر أن تنتفع بنشاط الفاتحين العلمي ومنتجهم الثقافي إلا مع نهاية النصف الأول من القرن الثاني بسبب وضعيتها السياسية القلقة وعامل الفتن والحروب التي كانت ساحة لها، فتأخرت حركتها الثقافية إلى أن أخذت تُقلد القيروان في التعليم ودراسة العلوم والآداب، فعم النشاط تبهرت التي أطلق عليها (ابن الصغير المالكي) تسمية عراق المغرب و(بلخ المغرب) (الجزاعلة، 2017، صفحة 78) وهي عاصمة الدولة (الرستمية) ونافستها (طبنة) في الجهة الشرقية كقاعدة للحركة العلمية والأدبية.

ورغم أن هاته الفترة هي فترة مخاض - كما أسلفنا ذكره - إلا أنه بدأت تتمثل فيها بوادر تراث فكري جديد، لم يجمع من نبوغ أعلام من فقهاء المذهب الإباضي في العقيدة والفقه والأدب، كعبد الرحمن بن رستم القاضي مؤسس الدولة الرستمية (144-168هـ) والذي كان عالماً وله تأليف في التفسير، وولده عبد الوهاب الذي برز في العلوم الدينية وله كتاب نوازل نفوسة وهو عبارة عن مجموعة فتاوي، والإمام أفلح بن عبد الرحمن (188-238هـ) الذي نبغ في الشعر والنثر (بونار، 1999، صفحة 63)، إلى جانب الأمير إبراهيم بن الأغلب أمير طبنة الذي كان شاعراً وأديباً، ورعى نمو الحركة العلمية في شرقي الجزائر في عنابة وقسنطينة.

إن الازدهار الأدبي والثقافي في الجزائر كان مترامناً مع قيام الدولة الرستمية التي وصفها عبد الملك مرتاض بأنها "عجيبة التركيب، تأسست تحت ظروف اضطرارية لم تك قط متوقعة" (مرتاض، الأدب الجزائري القديم دراسة في الجذور، 2016، صفحة 30) وهي أول دولة جزائرية مستقلة، نتيجة اعتناء وتشجيع أئمة تبهرت للثقافة، مع جعلهم اللغة العربية هي اللغة الرسمية للدولة (دبوز، 1963، صفحة 371)، وهو ما ذهب إليه مبارك الملي في أن العربية لسان حال الدولة الرستمية، كما شاعت المناظرات والمذاهب العقائدية بين الفرق المختلفة، والتي انعكست إيجاباً بكونها عاملاً هاماً في هذا التلاقح الثقافي الذي خدم اللغة العربية كثيراً "من أتى حلقات الإباضية ناظره ألف مناظرة، وكذلك من أتى الإباضية إلى حلقات غيرهم، كان سبيله ذلك" (الباروني، 2005، صفحة 11).

وعرف الأدب الجزائري تطوراً ملحوظاً على مستوى الشعر والنثر على حد سواء، من خلال بعض الأعلام الذي كان لهم صدى في تطور الأغراض والموضوعات بصورة عامة، فنجد الإمام الأمير أفلح بن عبد الوهاب (188-238هـ)

الذي اشتهر بقصيدته المكونة من 44 بيتا وهي منظومة تعليمية ومطلعها (مرتاض، الأدب الجزائري القديم دراسة في الجذور، 2016، صفحة 217):

العلمُ أبقى لأهل العلم آثارا \*\*\* يُريك أشخاصهم رُوحًا وأبكارا

حَيُّ وإن مات ذو علمٍ وذو ورعٍ \*\*\* ما مات عبداً قضى من ذاك أوطارا

كما له مجموعة من المؤلفات والرسائل والأجوبة الجامعة لنصائح وحكم ومواعظ، دلت على ماله في الفضل والكمال والعدل، وطول الباع، وفي غزارة العلم، وقوة الإدراك من الاتساع (الباروني، 2005، صفحة 237)، ومن بعض رسائله مايلي:

من أفلق بن عبد الوهاب إلى نفات بن نصر، أما بعد:

فالحمد لله المنعم علينا، والمحسن إلينا، الذي بنعمته تتم الصالحات، ولا يهتدي مهتد إلا بعونه وتوفيقه، فله المنة علينا، ولا منة لنا عليه، وهو المحسن إلينا؛ إذ هدانا لدينه وجعلنا خلفا من بعد أسلافه الصالحين، وأئمتنا المهتمدين...

وقد كتبتُ إليك غير كتاب أنصح لك فيه، وأدعوك إلى رشدك، وفي كل ذلك لا يبلغني من عمالنا فيك إلا ما أكره ولا أرضاه لدين ولا لنديا، حتى حررت كتابا منشورا إلى عمالنا أرتهم فيه بخلع كل من خالف سيرة المسلمين وابتدع غير طريقهم... (الباروني، 2005، الصفحات 257-258)

وإلى جانبه نجد أحمد منصور الذي اشتهر بالخطب وهو أحد خطباء بني رستم في المسجد الجامع بتبهرت، والشاعر بن الخراز التاهري، إلى جانب شخصية الشاعر بكر بن حماد التيهري (200-296هـ) الذي مدح المعتصم في بلاطه في حضرة كبار الشعراء كأبي تمام ودعبل الخزاعي وله ديوان مشهور باسم "الدر الوقاد" (شاوش، 1966).

وكان لدولة بني رستم الفضل الأكبر في ازدهار العلوم الدينية والأدبية التي شملوها بالرعاية والاهتمام، فكان عصرهم خصبا، نُحِضت فيه العلوم والآداب ومختلف فروع الثقافة، وظهر نشاط الحركة العلمية بصورة جلية، وازدان بأعلام وشخصيات علمية وأدبية متميزة، فعمت النهضة تبهرت وما جاورها، وبلغ الأمر أنه كلما ظهر كتاب بالمشرق يهمهم جلبوه إليهم وزودوا به مكتبتهم التي عرفت بـ"المعصومة"، فيها الآلاف من المجلدات، والتي أحرقها الفاطميون بدخولهم تبهرت سنة 399هـ، وهي "مكتبة عربية إسلامية تعتبر من أجل مكاتب ذلك العصر جمعوا فيها من الكتب القيمة في مختلف العلوم والتاريخ والرياضيات الشيء الكثير" (المدني، 1350هـ، صفحة 78)، وفي هذا الشأن يقول عبد المالك مرتاض "وقد كان الرستميون يجتهدون في نقل كل ما يصدر من كتب ذات شأن في الشرق العربي، وخصوصا في بلاد عمان، حتى إن عبد الوهاب بن عبد الرحمن الرستمي اشترى من البصرة دفعة واحدة حمل أربعين بعيرا من الكتب، وهي الأحمال التي نقدها بالوزن العصري بملا يقل عن عشرة أطنان من الكتب ابتيعت من البصرة دفعة واحدة..." (مرتاض،

الأدب الجزائري القديم دراسة في الجذور، 2016، صفحة 39)، وهو ما ذكره عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (171-211هـ) أنه "أرسل إلى بعض الإباضيين في البصرة بألف دينار ليشتروا له كتابا بها، فاشتروا له كثيرا من الكتب... (ضيف، د.ت، الصفحات 80-81)، وهو ما يؤكد الباحث محمد علي دبوز في قوله: "إن الدولة الرستمية كانت دولة العلم والمعرفة وإن العلماء كثروا فيها، وزخرت بهم مدنها وقراها، حتى ليعدون بالملفات" (دبوز، 1963، صفحة 81).

بينما يصف (مبارك الميللي) العاصمة الرستمية (تبهرت) بمساجدها وحلقاتها بأنها "أصبحت... معدن العلم والأدب ومحط رجال الطلبة حتى قال فيها أبو عبد الله البنا (يفضلونها على دمشق وأخطأوا وعلى قرطبة وما أظنهم أصابوا) ولست أشك في أنها دونهما، ولكن حضورها في الذهن بحضورها يكفي دليلا على تقدمها وريقها" (الميللي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج2، 1989، صفحة 452).

ورغم الفتن والحروب التي عرفتها الجزائر، إلا أن ذلك لم يمنع من انتعاش الحركة الأدبية والعلمية بما فكانت نشطة بصورة لم يسبق لها مثيل، فاشتهرت الحواضر الثقافية التي كانت مراكز للأدب والعلم والمعرفة كطبنة بالشرق الجزائري على عهد بني الأغلب (184-296هـ) وتبهرت الرستمية والمسيلة التي أسست عام 315هـ والتي عُرفت بنشاطها الثقافي المميز فكانت مقصد الأدباء من كل مكان والفضل في ذلك يعود إلى مؤسسها وواليتها "علي بن حمدون"، ثم كان عهد أميرها "جعفر بن علي" المعروف بابن الأندلسي، الذي عمل على استقدام العلماء والأدباء إليه، فكان منهم الشاعر ابن هانئ الأندلسي (326-362هـ/938-973م) الذي قال في مدح الأمير جعفر بن علي (الأندلسي، 1980، صفحة 165):

المشرقَاتُ النيراتُ ثلاثةٌ \*\*\* الشمسُ والقمرُ المنيرُ وجعفرُ

خليلي، ما الأيامُ إلا بجعفرٍ \*\*\* وما الناسُ إلا جعفر، دام جعفر!

وقال موضع آخر بمدحه ويتوجع من علة عرضت عليه، بقصيدة بعنوان "يا أفضل الناس" (الأندلسي، 1980، صفحة 335):

يا خَيْرَ ملتحفٍ بالمجد والكرم \*\*\* وأفضلِ الناسِ من عُرِبٍ ومن عجم

وإذا كان الأدب قد شهد في الفترة الرستمية شدة في المناظرة والاعتراض، فإن فترة الأغلبية عرفت توسعا في الأفق الفكري نتيجة فتح أمراءه الدولة المجال للمدارس الفكرية تدلي بدلوها وتقده زناد الفكر والثقافة مثل ما يشير إلى ذلك محمد طمار (طمار، 2016، صفحة 87).

وجاءت دولة بني حماد (405-547هـ) لتبسط نفوذها على المغرب الأوسط، كأول دولة بربرية مستقلة بالجزائر الإسلامية، فازدهرت الحركة الثقافية نشاطا بها، وكثر عدد الفقهاء والأدباء وانتشرت المراكز العلمية في مختلف الأنحاء، وكان حماد بن بلكين قد "بنى مدينة "القلعة" عام 398هـ (1007م) قرب مدينة أشير جنوبي غربي برج أبي عريبيج وشمال شرقي مدينة المسيلة" (بوعزيز، 2007، صفحة 148)، فاستكثر فيها من المساجد حتى غدت مركزا كبيرا للدراسات الدينية واللغوية، وعرف الأدب في هذا العهد ازدهارا لتظافر العديد من الأسباب، فاللغة العربية هي اللغة الرسمية برعاية أمراء الدولة "والعربية هي اللسان الرسمي للدولة الحمادية مع أن رؤساءها برابرة لكونها لغة القرآن والدين، شرفوها واجتهدوا في نشرها، ثم جاء الهلاليون وسليم وزغبة ورياح بلغتهم القريبة جدا من الفصحى" (الطمار، 69/170، صفحة 46) بالإضافة إلى عناية بني حماد بالكتابة والأدباء "فكانت للكتابة عندهم منزلة ليس وراءها إلا منزلة أمراء الجيش" (الطمار، 69/170، صفحة 49)، وقد كان الناصر بن علناس (454-481هـ) أجل الملوك شأنًا وأكثرهم تنشيطا للعلم والعلماء، فكان يستقدم الأدباء إليه ويغدق صلواته عليهم ومن أشهر من قصده، من غير الجزائريين، ابن الكفاه القيرواني الذي قال فيه (بونار، 1999، صفحة 196):

قالت سعاد وقد زُمت ركائبنا ... مهلا عليك فانت الراح الغادي

فقلت تالله لا انفك ذا سفر ... تجري بي الفلك أو يحدو بي الحادي

حتى أقبل ترب العز منتصرا ... بالناصر بن علناس بن حماد"

وبفضل نشاط الحماديين في تقريب العلماء إليهم ومنافستهم لبني عمومتهم بني زيري بالمهدية والقيروان، "بلغت الجزائر على عهدهم شأوا مرموقا من الحضارة والتمدن... واستقل كثير من العلماء والأدباء بالتدوين والتعليم والتأليف وازدهرت أسواق الادب وظهرت حركة فكرية لم تعرفها إفريقية من قبل" (بونار، 1999، صفحة 142)، فأنجبت هذه الدولة أدباء وشعراء فطاحلة ازدانت بهم شهرة ورفعة ومنهم عبد الكريم النهشلي (ت405هـ) وتلميذه ابن رشيق صاحب العمدة (385-463هـ) ويوسف ابن النحوي ناظم المنفرجة (ت513هـ) عمره 80 عاما، و الشاعر أبو حفص عمر بن فلفول وابن القالي و أبو عبد الله بن أبي دفرير.

لينتقل بعدها الأمير الناصر إلى عاصمته الجديدة بجاية التي أسسها عام(460هـ) والتي كانت في الأصل ميناء بحريا قديما، فسامها الناصرية، "وكان كثير من أبنائه وأحفاده يكرمون العلماء ويعقدون لهم مناظرات في مجالسهم وبعثوا في القلعة ثم في بجاية نخضة علمية وأدبية، وأم حاضرتيهما بعض العلماء والشعراء المرموقين من أمثال ابن حمديس..." (ضيف، د.ت، صفحة 82)، وقد بذل جهودا خصبة في إنماء الحركة العلمية ببجاية التي أضحت مركزا علميا ضخما يند إلىه العلماء والأدباء من كل مكان من الأندلس وبلاد المغرب.

"...وقد أنشأ الأمير الناصر في بجاية "معهد سيدي التواتي" الذي كان يحتوي على ثلاثة آلاف طالب، وتدرس فيه كل المواد بما فيها العلوم الفلكية، وخلال مؤتمر علمي ألفت تلميذة من هذه الجامعة محاضرة دامت ثلاثة أيام حول بروج الشمس أمام مجموعة من العلماء الأجانب... فقد كان مرخصا للفتيات، ليس فقط بالتعليم، ولكن بتقديم أطروحات باسم الجامعة" (ضيف، د.ت، صفحة 254).

وقد كانت دولة بني حماد من أعظم الدول التي عرفها التاريخ الإسلامي ثقافة وأدبا وحضارة وعمرانا، قال عنها الباحث المصري عبد الحليم عويس بأنها "صفحة رائعة من التاريخ الجزائري" (عويس، دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، 1991)،

وبسقوط دولة بني حماد على يد الموحدين، بقيادة عبد المؤمن بن علي عام 547هـ، ظهر أدباء وشعراء كبار في فترتها منهم الحسن بن الفكون القسنطيني الشاعر المبدع المتوفي بأوائل القرن السابع الهجري، ومعاصره محمد بن علي الهمداني (ت 601هـ) الوهراني الأصل الناشئ بتلمسان، وكان فقيها تولى قضاء تلمسان ومحمد بن حماد القلعي المشهور بمراثيه للدولة الحمادية (ت 628هـ) (ضيف، د.ت، صفحة 125).

ورغم ذلك شهدت فترة دولة المرابطين وبعدهم الموحدين جمودا في الأدب "فلم تستطع أن تتقدم في الحركة الأدبية، إذ استعلى الفقهاء أول الأمر في الحكومة وأصبح الحكام يتخذون منهم كتابا، فطبعوا النثر بطابعهم الجامد..." (شوقي، 1983، صفحة 332)

لتظهر بعدها نهضة علمية وأدبية عظيمة في عاصمة الدولة الزيانية (عبد الواد) تلمسان التي أسسها سنة 633هـ "بغمراسن" فقاد بمعية أبنائه وأحفاده هاته النهضة "فأنشئوا المدارس وأكثروا في مجالسهم من مناظرات العلماء بين أيديهم... ويتغنى بمدحهم الشعراء ويجزلون لهم في العطاء" (ضيف، د.ت، صفحة 126)، وهو ما ذهب إليه رابح بونار الذي أكد أن عصر بنو زيان هو العصر الذهبي للحركة الثقافية بالقطر الجزائري، بلغت فيه العلوم على اختلاف أنواعها أعلى المراتب، وارتقت الفنون الأدبية من نثر وشعر، وبلغت قمة نضجها (بونار، 1999).

لنصل إلى العهد العثماني حيث نجد شعراء كبار أثروا الحياة الأدبية في ذلك الوقت رغم الركود الثقافي الذي ساد الجزائر في هاته الفترة حيث لم تعرف حركات تجديد فكري ولا نهضة علمية، ومن بين هؤلاء الشعراء والأدباء نجد "بن قنفذ القسنطيني" المتوفي 809هـ وله أشعار دينية صاحب الرحلة الشهيرة "أنس الفقير وعز الحقير"، و"أحمد المقرئ" صاحب "نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب" المتوفي 1041هـ، ثم عبد الكريم الفكون صاحب "منشور الهداية في نقد المتصوفة" المتوفي 1073هـ وله ديوان في المديح النبوي، ثم نجد أحمد البوني المتوفي 1116هـ له منظومة علمية "إعلام الأخبار لغرائب الوقائع والأخبار"، ويأتي بعده محمد بن ميمون الذي يعد أديبا ماهرا؛ وله أسلوب رقيق، وهو صاحب "التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية" (سعدالله، 1998، صفحة 208).



### 3. روافد التكوين الثقافي في الأدب الجزائري القديم:

ساهمت الكتاتيب والمساجد والزوايا كمراكز تعليمية مهمة انتشرت عبر العديد من المدن في نشر العلم وتفعيل الحركات العلمية والأدبية بالمغرب الأوسط، والتي أنشئت على نطاق واسع نتيجة الاهتمام الكبير بها لما لها من تأثير بالغ في نشر الوعي وتنقيف الأمة، إلى جانب الرحلات العلمية التي كان لها الأثر البارز في التكوين الثقافي والأدبي بهذا الإقليم نتيجة الاحتكاك بالمؤسسات الثقافية والعلمية بالزيتونة والأزهر الشريف وحتى بالحجاز لشخصيات وأدباء جزائريين مثل بكر بن حماد والوهراني والنهشلي وابن رشيق صاحب العمدة والمقري صاحب نفح الطيب، إلى جانب اهتمام حكام المغرب الأوسط بشعراء وعلماء المناطق المجاورة القادمين إليها من الأندلس والمغرب وغيرها كما هو الحال مع ابن هانئ الأندلسي وابن حمديس الصقلي...

#### 1.3. المراكز التعليمية:

شهدت الجزائر عقب الفتوحات الإسلامية تأسيس دُور العلم لتعليم الناشئة والناس القراءة والكتابة وتحفيظهم القرآن الكريم والأحاديث النبوية وتعريفهم بتعاليم الإسلام، وتمثلت دُور العلم هذه في الكتاتيب والمساجد والزوايا والمدارس والمكتبات.

وكانت الكتاتيب التي هي أسبق أنواع المراكز التعليمية وجوداً، تبنى مستقلة أو ملحقة ببعض المساجد، وأخذت المعارف بما تتسع مع الزمان، فشملت تحفيظ القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة وسيرة الرسول صل الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين، "ولكن العناية الكبرى إنما تنصب على تحفيظ القرآن وبعض الأحاديث حتى يرسخ الإيمان في نفوس الناشئة، وتأتي بعد ذلك مدارس الحساب وغيره من مبادئ العلوم، وكانت الكتاتيب منبثة في المدن والقرى وفي كل تجمع للقبائل الجزائرية الجبلية والصحراوية وتكاثرت في المدن كثرة مفرطة حتى كانت تعد بالعشرات في طينة وقسنطينة وبونة وبجاية وتاهرت والجزائر وتلمسان والميزاب وبسكرة وغير بسكرة" (ضيف، د.ت، صفحة 78)، فقد كانت الكتاتيب أشهر أنواع التعليم الابتدائي التي تعلم الصبيان، "وأحياناً كان يقوم مقام الكُتَّاب "خيمة مدرسية عند البدو" إلى جانب كونه مصلًى... (عويس، 1991، صفحة 253)، أما عن الأدوات المستعملة في الكتاتيب فهي عبارة عن ألواح خشبية مسطحة وقلم وصبغ (دواية) و مادة الصلصال.

وقد امتدت كتاتيب القرآن في أغلب المدن والقرى الجزائرية، فهي أول مكان يتلقى فيه الطفل الحروف الهجائية، وحفظ القرآن الكريم بواسطة اللوح المصلصل، والقلم القصبي، حيث تتواجد أغلب هذه الكتاتيب في المساجد الصغيرة التي لا تقام فيها الصلوات الخمس. (الجزائري، 1981، صفحة 58)

أما المساجد وباستقلال الكتاتيب عنها لم يمنع أن تبقى محل تعليم، إلا أنه ارتفع طبقةً، فصار بمثابة دار التعليم الثانوي أو للتعليم العالي (عويس، 1991، صفحة 253)، يتدارسون فيها العلوم النقلية والعقلية، فبعد حفظهم للقرآن الكريم بالكتاتيب ينتقلون إلى حلقات المساجد، حيث دروس الوعظ والتفسير ورواية الأحاديث النبوية والفقه وسيرة الرسول ﷺ وتاريخ الخلفاء الراشدين، ويتعمقون في التفسير وشرح موطأ الإمام مالك وقواعد العربية والشعر والنثر محاولين غرس نفوسهم السليقة العربية، ليصبحوا قادرين على نظم الشعر و الكتابة الأدبية.

ومن أشهر مساجد المغرب الأوسط مسجد سيدي غانم بميله والذي بناه أبو المهاجر دينار عام 59هـ بعد انتصاره على عمالة قسنطينة وهو أول مسجد أسس في الجزائر والرابع بإفريقية، وكان أبو المهاجر دينار بذلك أول أمير مسلم وطلعت خيله الجزائر" (عويس، 1991، صفحة 33) وتلمسان كان الجامع الأعظم الذي بناه موسى بن نصير عام 89هـ مركزاً ثقافياً إلى جانب جامع قسنطينة وبونة ووهران، "وكانت تلحق ببعض المساجد أبنية أو زوايا بها غرف معدة بالأثاث والفرش اللازمة لسكنى الطلاب من خارج المدينة وبعض الشيوخ،... وكان ينفق على الجوامع والمساجد من أوقاف محبوسة وكان أهل الثراء والسعة في الرزق يتنافسون فيما يجسسون عليها من عقارات..." (ضيف، د.ت، صفحة 79)

وانتشرت الزوايا في الجزائر بكثرة فهذه الطريقة القادرية نسبة إلى عبد القادر الجيلاني (470هـ-561هـ)، التي "أدخلها للجزائر الشيخ سيدي أبي مدين شعيب دفين تلمسان والمتوفي سنة 594هـ بعد عودته من البقاع المقدسة حيث أدى فريضة الحج" (العقي، 2002، صفحة 145)، واستطاع أتباع الطريقة أن ينشئوا الزوايا ويفتحوا الكتاتيب القرآنية في القرى والمداشر حيث التجمعات السكانية، وتمكنوا من تعليم الأطفال قراءة العربية وكتابتها وتلقينهم تعاليم الإسلام، و"قد كانت الزوايا تستقبل الطلاب لتعليم العلوم الشرعية وتقام بها الصلوات الخمس أحيانا ويسمح لطالب العلم أو عابر السبيل بالإقامة بها ومن ثم فهي مرافق تعليمية اجتماعية، ومن أبرز الزوايا بتلمسان الزيانية "زاوية أبي يعقوب، وزاوية سيدي الحلوي وزاوية سيدي أبي مدين وغيرها" (غرداين، 2007، صفحة 289)، وقد كثرت الزوايا بصورة مفرطة في القرن العاشر "في منطقة زاوية وبجاية وعنابة، ويقال إنها بلغت في مدينة الجزائر نحو 15 زاوية، وبلغت في قسنطينة نحو 16 زاوية، أما في تلمسان فبلغت نحو عشرين زاوية" (ضيف، د.ت، صفحة 80).

### 2.3. الرحلات العلمية:

الرحلة سلوك إنساني وسعي دائم لتحقيق غايات معينة تختلف من بيئة لأخرى، يقودها فضول الاستكشاف، وهو فن موغل في القدم عرفته جل الأمم السابقة، والرحلة العلمية هدفها طلب العلم، والنهل من معين العلماء الصافي، من

خلال مجالسة العلماء والأدباء والسماع منهم والأخذ عنهم، وكان العلماء يحثون الطلبة عليها، "وكان البعض منهم ينتهز موسم الحج فيعرج على الشيوخ أثناء سفره للسماع منهم" (صافية، 2011، صفحة 180).

وما من شك في أن الجزائري لم يكن في منأى عما يدور حوله في العالم، فكان شديد التنقل والترحال بين المدن والحواضر، فقد اتخذ أهل المغرب الأوسط الرحلات سبيلا لطلب العلم وتعزيزه في تنمية فكرهم ونضجهم والاستفادة من غيرهم، وهو ما عُرف "بالرحلة في طلب العلم"، "ولعل أول رحلة احتفظ بها التاريخ، قام بها مثقف جزائري إلى بلاد المشرق تلك المتجسدة في رحلة بكر بن حماد الزناتي الذي باكر في النهوض بهذه الرحلة إلى بغداد وهو في سن السابعة عشر ربيعا (مرتاض، تأثير الثقافة المشرقية في المغرب ودور المشاركة في نشر اللغة العربية في الجزائر، 2006، صفحة 96)، فقد انتقل بكر بن حماد إلى مدينة العلم والحضارة آنذاك القيروان عام 217هـ، ثم توجه إلى مصر فالبصرة بالعراق، فأخذ عن كبار المشايخ واتصل بفحول الشعراء كأبي تمام و دعبل الخزاعي، كما اتصل بكر بالخليفة المعتصم بالله؛ فبعد دخوله بغداد عاصمة الخلافة العباسية آنذاك دخل على الخليفة المعتصم بالله ومدحه بشعره فأكرمه الخليفة، وكانت بينه وبين دعبل الخزاعي حوادث، فحين هجا دعبل الخزاعي المعتصم بقصيدة يقول فيها (عبدالقادر، 2018، صفحة 62):

ملوك بني العباس في العد سبعة \*\*\* ولم تأتنا عن ثامنهم كتب

كذلك أهل الكهف في الكهف سبعة \*\*\* خيارا إذا عدوا و ثامنهم كلب

وإني لأعلي كلبهم عنك رفعة \*\*\* لأنك ذو ذنب وليس له ذنب

وهنا تولى بكر ابن حماد الرد على دعبل الخزاعي حيث استعدى الخليفة عليه واضطره إلى الهروب خوفا على نفسه، أين قال في قصيدة يهجو فيها دعبل، وكانت الأبيات ذات تأثير على نفس الخليفة، حتى أنّ أبا تمام شاعر البلاط الرسمي كان يتجافى ذلك، فجاء إليه وقال له: قتلته والله يا بكر وعاتبه على ذلك، ومن هذه الأبيات التي يحرض فيها بكر بن حماد الخليفة المعتصم على دعبل وهجوه له (شاوش، 1966، صفحة 70):

أيهجو أمير المؤمنين ورهطه \*\*\* ويمشي على الأرض العريضة دعبل

أما والذي أرسى ثيرا مكانه \*\*\* لقد كانت الدنيا لذاك تزلزل

ولكن أمير المؤمنين بفضله \*\*\* يهيم فيعفوا أو يقول فيفعل

إلى أن يقول:

وعاتبني فيه حبيب وقال لي \*\*\* لسانك محذور وسمك يقتل

وإني وإن صرفت في الشعر منطقي \*\*\* لأنصف فيما قلت فيه وأعدل

كما قدم الكثير من طلاب العلم والعلماء الأندلسيين تيهرت وتلقوا العلم من علمائها يوم كانت عاصمة للرقى والمعرفة والمناظرات.

مع تسجيل عدد غير قليل من العلماء والأدباء من المشرق والأندلس الوافدين إلى المغرب الأوسط طلبا للعلم أو للاتصال بعلمائها، فنجد ممن ذاع صيتهم وعلا شأنهم في ميدان القريض " ابن هانئ الاندلسي المتوفي (363هـ) الملقب بمتنبي المغرب، شاعر المذهب الشيعي والمنافع عنه، الذي حل بالجزائر، وأقام بالمسيلة التي تذكره بإشبيلية وقرطبة، حيث كانت محطة العلم والعلماء " (طمار، 2016، صفحة 66) .

وإلى بجاية رحل ابن حمديس المعروف بالصقلي(ت527هـ) واستقر بها ردحا من الزمن، في فترة عهد المنصور الحمادي (481-498هـ) وله فيه وفي وصف قصوره مدائح بديعة"، كما نزل بقلعة حماد واستوطنها كبار الشعراء ومنهم أبو الفضل يوسف بن محمد التوزري التونسي، وبها تصدر للتدريس حتى وفاته (ت513هـ) (ضيف، د.ت، صفحة 117)

كما ارتحل إلى بجاية "أبو مدين شعيب الإشبيلي الأندلسي" دفين تلمسان المتوفي 594هـ من كبار صوفية الأندلس الذي ضاع صيته في الفقه، فمكث في بجاية خمسة عشر عاما، وكان قد ارتحل إلى المشرق فدخل البقاع المقدسة أين أدى فريضة الحج، ومنها أخذ الطريقة القادرية التي أدخلها للجزائر.

ومن الشخصيات الجزائرية التي أثرت فنون الأدب، وكانت لها رحلات إلى خارج حدود المغرب الأوسط (الجزائر)، نجد شخصية الشاعر والأديب "عبد الكريم بن ابراهيم النهشلي المسيلي (ت 405هـ) (القيرواني، 1986، صفحة 170)، الذي ارتحل إلى القيروان وألف كتاب "المتع في علم الشعر وعمله"، فاكتملت هناك ثقافته، كما ارتحل تلميذه "ابن رشيق المسيلي" (ت 456هـ) المعروف بالقيروان لقضاء معظم حياته بالقيروان فاشتهر بها وذاع صيته في النقد والأدب ومؤلفه "العمدة في محاسن الشعر وآدابه" الذي يعتبر من أبرز كتب النقد على الإطلاق، كما له كتاب "أنموذج الزمان في شعراء القيروان" له أكثر من 30 مؤلفا.

أما ابن الربيب التميمي التيهري (ت430هـ) المعروف بالقاضي فقد ارتحل القيروان وطلب العلم بها فعرف بها وهو الذي وصفه ابن رشيق "بأنه بلغ نهاية الأدب وعلم الخير والنسب" وله في ذلك تأليف مشهور (القيرواني، 1986، صفحة 111)

واشتهر من الواردين على القيروان في عالم الأدب أبو عبد الله ابن قاضي ميلة، يقول عنه ابن رشيق في أنموذج الزمان "شاعرٌ ليسَ مقتدر، له في الشعر قدم سابقة ومجال متسع، سحب أباه إلى جزيرة صقلية، عرف ثقة الدولة من أمراء بني الحسن بصقلية، له فيه قصيدة فائية مشهورة" (القيرواني، 1986، صفحة 209).

ومن روائع شعره:

جاءت بعود تناغيه فيتبعها فانظر عجائب ما يأتي به الشجر

غنت على عوده الأطيبار مفصحة رطبا، فلما ذوى غنى به البشر

فلايزال عليه أو به طرب يهيجه الأعجمان الطير والوتر

(الملي، تاريخ الجزائر القديم والحديث، ج2، 1989، صفحة 126)

وفي العهد العثماني نسجل رحلة المقرئ التلمساني أحد الأعلام الأفاضل، مؤلف كتاب "الرحلة إلى المغرب والمشرق" وهو عبارة عن رحلة يعالج فيها الحياة الثقافية والأدبية في عصره في بلاد المغرب والمشرق، واشتهر المقرئ وهو أحمد بن محمد المقرئ التلمساني المولد المالكي المذهب، بكتابه "فصح الطيب في غصن الأندلس الرطيب"، وولد المقرئ عام 986هـ الموافق لسنة 1578م بمدينة تلمسان؛ قرأ وتعلم بها، كانت مدينة تلمسان عاصمة للدولة الزيانية لعدة قرون والتي اشتهرت برصيدها الثقافي الكبير وأصل أسرته من قرية مقررة التي تقع في منطقة المسيلة ببلاد الزاب، وهو نزيل فاس ثم القاهرة حافظ المغرب جاحظ البيان، كان آية باهرة في علم الكلام والتفسير والحديث وغيره، توفي بالشام مسموما على ما قيل سنة 1041هـ. (الديسي، 1906، الصفحات 44-58)

#### 4. خاتمة:

ومما سبق يمكن القول بأن تنوع المؤسسات التعليمية والمراكز العلمية ساهمت في تكوين أفراد وشخصيات إقليم المغرب الأوسط على اختلاف اهتماماتهم ومستوياتهم الاجتماعية، مما ساعد في بروز علماء وأدباء خاضوا في العديد من العلوم والمعارف، وهذا بفعل الدور الإيجابي لأمرء وحكام الدول المتعاقبة وخاصة الرستميين والحمايين الذين كان لهم دور هام في إثراء وتبادل النشاط العلمي والثقافي والأدبي بين مختلف الحواضر، واستقبالهم للشعراء والعلماء وإعطائهم المكانة اللائقة بهم.

كما مثلت الحواضر العلمية كتيهت وبجاية والقلعة مراكز للفكر، والحوار الحضاري، وحرية الرأي، ونشر مختلف العلوم فأضحت تشد لها الرحال من مختلف الأمصار، حتى سميت الدولة الرستمية بعراق المغرب، إلى جانب الرحلات العلمية التي كانت ذات تأثير كبير، وما قدمه المغرب الأوسط من شعراء وعلماء كان لهم باع طويل في ذلك؛ أمثال ابن رشيق والمقرئ وبكر بن حماد التاهرتي.

#### 5. قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن رشيق القيرواني. (1986). أموذج الزمان في شعراء القيروان. تونس: الدار التونسية للنشر.
2. ابن هانئ الأندلسي. (1980). الديوان. بيروت: دار بيروت للنشر.
3. أبو القاسم الديسي. (1906). تعريف الخلف برجال السلف. الجزائر: مطبعة بيبير قوتنانة الشرقية.
4. أبو القاسم، سعدالله. (1998). تاريخ الجزائر الثقافي، ج2. الجزائر: دار الغرب الجزائري.
5. الطمار، م. (170/69). تاريخ الأدب الجزائري. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
6. بن سالم عبدالقادر. (2018). فوائد مختلفة وتحف مستطرفة، ط1. الجزائر: دار الجلفة إنفو.
7. توفيق المدني. (1350هـ). تاريخ الجزائر إلى يومنا. مطبعة العمر بيه.
8. رايح يونار. (1999). المغرب العربي تاريخه وثقافته. عين امليلة الجزائر: دار الهدى.
9. شمسة غربي. (أوت، 2015). الأدب الجزائري القديم. مجلة عود الند الثقافية.
10. شوقي ضيف. (د.ت). تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات، ج10. القاهرة: دار المعارف.
11. صلاح مؤيد العقبي. (2002). الطرق الصوفية والزوايا في الجزائر، تاريخها ونشاطها. الجزائر: دار البرق.
12. ضيف شوقي. (1983). الفن ومذاهبه في النثر العربي، ط10. القاهرة: دار المعارف.
13. عبد الحليم عويس. (1991). دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري. القاهرة: دار الصحوة ودار الوفاء.
14. عبد الله سليمان الباروني. (2005). الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، ط1. لندن: دار الحكمة.
15. عبد المالك مرتاض. (2006). تأثير الثقافة المشرقية في المغرب ودور المشاركة في نشر اللغة العربية في الجزائر. مجلة المجمع الجزائري للغة العربية.
16. عبد المالك مرتاض. (2016). الأدب الجزائري القديم دراسة في الجذور. الجزائر: دار هومه.
17. كساس صافية. (2011). الرحلات العلمية من وإلى المغرب العربي. مجلة الممارسات اللغوية، عدد08.
18. مبارك الميللي. (1989). تاريخ الجزائر القديم والحديث، ج2. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
19. محمد بن رمضان شاوش. (1966). الدر الوقاد في شعر بكر بن حماد التاهري. مستغانم: المطبعة العلوية.
20. محمد بن ميمون الجزائري. (1981). التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، ط2. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر.
21. محمد طمار. (2016). تاريخ الأدب الجزائري، ط4. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

22. محمد علي دبوز. (1963). تاريخ المغرب الكبير، ج3. القاهرة.
23. مغنية غرداين. (2007). قراءة في الحركة العلمية بتلمسان الزبانية(633هـ-992هـ). مجلة علوم الإنسان والمجتمع، عدد24.
24. ياسر طالب الخزاعلة. (2017). الخلافة العباسية وموقفها من الدول المستقلة في المغرب. الأردن: دار الخليج.
25. يحي بوعزيز. (2007). الموجز في تاريخ الجزائر، ج1. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.